أثر المقدمات فى تطور التفسير

دكتورة/ هيا ثامر

قسم أصول الدين – كلية الشريعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستهديه ونسأله العون والسداد ، ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعباد ، سيدنا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام .

وبعد فالبحث الذي بين أيدينا يتناول المقدمات التي دأب المفسرون على الاستهلال بها في مقدمة التفسير ، وهي بالطبع ليست خطبة الكتاب.

معنى المقدمة :-

" المقدمة ((من كل شيء :أوله ، ومن الجيش طائفة منه تسير أمامه ، ومنه يقال : مقدمة الكتاب ومقدمة الكلام))[١]

وفي كتاب معاوية لملك الروم " لأكونن مقدمته إليك " أي الجماعة التي تتقدم الجيش ، من قدم بمعنى تقدم ، وقد استعير لكل شيء يقدم ، فقيل مقدمة الكتاب ومقدمة الكلام . [٢]

فإذا قلنا إن الخطبة في الكتاب هي مقدمته فإن مقدمات التفسير هي من قبيل مقدمة الكلام على التفسير.

وتقوم فكرة البحث على افتراض عدم جدوى المقدمات الاستهلالية التي تتصدر كتب التفسير

لأن هذه المقدمات تتناول موضوعات شتى وتتحدث عن علوم ومعارف عدة مثل : فضل القرآن – جمع القرآن وكتابته – الأحرف السبعة – الإعجاز القرآني – أسماء القرآن وسوره وآياته – ما قيل في القرآن والجرأة عليه – الناسخ والمنسوخ – الوقف والقراءات – الفصاحة والبلاغة والبيان – أسباب النزول – أدوات المفسر – إلى غير ذلك من موضوعات لا تخرج بحال من الأحوال عن هذا الإطار أو تدور في دائرته.

وإذا أمعنا النظر في هذه المقدمات بموضوعاتها هذه فإنا نجدها لا تخرج عن دائرة العلم المسمى" علوم القرآن " .

---

(١) المعجم الوسيط – طبعة مجمع اللغة العربية ٧٢٠/٢ – الطبعة الثانية ١٩٧٣

(٢) لسان العرب – ابن منظور – ٦٦/١١ –دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط الأولى –١٩٨٨

وهذه الموضوعات وإن كانت وثيقة الصلة بالقرآن الكريم ، إلا أنها لا تضيف جديداً في ميدان التفسير الذي يدور موضوعه على بيان وتوضيح معاني القرآن. مما يرسخ الاعتقاد بأنها مجرد ديباجة شكلية بين يدي التفسير فحسب . يضاف إلى ذلك أن المفسرين لم يحاولوا بشكل أو بآخر إيجاد أو خلق _ إن صح التعبير — علاقة تربط بين الشكل والمضمون ،

في ذات الوقت ترى أنه من غير المعقول والمقبول أن يتصدى شخص ما لتفسير كتاب الله العظيم وهو يجهل معرفة أدوات المفسر أو شروط المفسر والتفسير ، أو أنه يجهل القواعد والضوابط ، خاصة وهو يقدم على تفسير كامل أو شامل للقرآن الكريم كله .

ولكن هذا لا يمنع أن يعمد المفسر إلى ذكر الأحاديث التي تحث على العلم بتفسير كتاب الله عز وجل وتأويله وتدبر معانيه وآياته ، وبيان أن الأمة ملزمة بمعرفة تأويله ، وذكر بعض الأخبار التي أخطأ في تأويلها منكرو القول بتأويل القرآن .

ولا مانع أيضاً من أن يتبنى المفسر منهجاً من مناهج التفسير المختلفة ويعرب في مقدمته عن الخطوط العريضة والمنهج الذي ينوي اتباعه ، ولكن من غير المناسب أن يسهب المفسر في ذكر اختلاف مناهج المفسرين ثم لا يبين لنا مدى العلاقة التي تربط بين خطته ومسلكه في تفسيره للآيات القرآنية .

وهكذا كانت هذه المقدمة هي الانطباع الأولي لدي أو بشكل أصح كانت هذه الملاحظة هي الفكرة المتأصلة في الذهن كلما فتحت كتاباً في التفسير وشرعت في قراءة المقدمة .

فهل كان الأمر كذلك بعد هذه الدراسة لموضوع المقدمات ؟

وهل ترسخ الانطباع الأول أو لا ؟

هذا ما تحاول هذه الصفحات أن تجيب عنه .

ولقد حاولت هذه الدراسة من خلال البناء الشكلي الذي وضعه المفسرون في مقدماتهم قراءة العلاقة بين الشكل والمضمون ومدى تطابق الخطة الخارجية بالمحتوى الداخلي ، كما حاولت هذه الدراسة استقراء إلى أي مدى ساهمت هذه المقدمات في وضع أطر وقواعد للارتقاء بعلم التفسير وإثرائه .

خطة البحث :

- المفسرون القدامى والمحدثون عبر مقدماتهم حسب تسلسل زمني .
- أبرز القضايا والموضوعات التي عالجتها المقدمات .
- التجديد الفكري والمنهجي في طرح المقدمات .
- دور المقدمات في إلقاء الضوء على مضامين كتب التفسير .
- العلاقة المباشرة بين المقدمات والعصر والبيئة التي ظهر فيها الكتاب .
- الخاتمة وأهم النتائج .

أولاً : الطبري (القرن الثالث الهجري)

الطبري –٢٢٤هـ – ٣١٠هـ .

صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير ، كان إماماً في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه والتاريخ .

وهو ثقة في نقله ومروياته ، ذكره إسحاق الشيرازي في " طبقات الفقهاء " في جملة المجتهدين ، كانت ولادته سنة ٢٢٤هـ بأمل طبرستان وتوفى سنة ٣١٠ ببغداد (١).

ويمثل تفسير أبن جرير أهمية خاصة أو أولية متميزة بين كتب التفسير أولية زمنية وأولية من ناحية الفن والصناعة أما أوليته الزمنية ، فلأنه أقدم كتاب في التفسير وصل إلينا ، وما سبقه من المحاولات التفسيرية ، ذهب بمرور الزمن ولم يصل إلينا منها شيء بالمعنى الموسوعي المتكامل .

أما أوليته من ناحية الفن والصناعة ، فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التي سلكها فيه مؤلفه حتى أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته (٢).

نظرة في مقدمة الطبري وتفسيره الكبير :

بدأ الطبري تفسيره بخطبة الكتاب ، ثم أعقبها بما يشبه الفصول أو ((الأقوال)) لمقدمته التفسيرية وكان القول الأول بعنوان : " القول في البيان عن اتفاق معاني أي القرآن والدلالة على أن ذلك من الله عز وجل هو الحكمة البالغة – مع الإبانة عن فضل المعنى الذي به باين القرآن سائر الكلام وفي هذا القول تناول الطبري إعجاز القرآن ودلالة ذلك الإعجاز على صدق نبوة محمد .

يقول أبو جعفر في هذا الفصل (... لا كلام أشرف من بيان ومنطق تحدى به أمرؤ قوماً في زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب

١ – وفيات الأعيان / أبن خلكان /١٩١/٤– ١٩٢ .دار صادر– بيروت ،١٩٧٩م تحقيق :إحسان عباس

٢ – التفسير والمفسرون / محمد حسين الذهبي ٢٠٩/١.دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٧٦م

والبلاغة وقيل الشعر والفصاحة) فسفه أحلامهم وقصر عقولهم ... فألقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق .

وهنا نرى أبا جعفر من خلال هذه النقطة يدلل على أهمية تفسير القرآن وبيان إعجازه .

ثم يقول فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمدﷺ لمعاني كلام العرب موافقة وظواهره لظاهر كلامها ملائماً (١)

أما القول الثاني : فقد عنون له بعنوان " القول في البيان عن الأحرف التي اتفقت فيها ألفاظ العرب وألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم وهنا يبدو لنا الطبري يجدول الكلمات التي يعتقد أنها لم تكن عربية ثم وافقت العربية مثل : " يؤتكم كفلين " قال : الكفلان – ضعفان بلسان الحبشة .

" قسورة " هو بالعربية الأسد وبالفارسية شارو .

" يا جبال أوبي معه " قال سبحي بلسان الحبشة .

حجارة من سجيل قال فارسية أعربت

ثم ينقل عن أبي ميسرة أنه قال : في القرآن من كل لسان

وثالث الأقوال هو :

*" القول في اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب "

وفي هذا الفصل يناقش الطبري قضية الأحرف السبعة ، وكون القرآن أنزل على سبعة أحرف وبيان أن الذي به نزل القرآن من السن العرب البعض منها دون الجميع .

وهو يرى في ذلك أن الأحرف السبعة لا يلزم أن تكون في كل لفظة وان الأحرف السبعة لا يلزم أن تكون موجودة اليوم ، ثم بيان العلة التي اقتضت أن الأمة اقتصرت على حرف واحد من السبعة .

وفي موطن آخر يتناول الطبري موضوع :

- "كتابة المصحف وأسباب ذلك
- وجوه تأويل القرآن : والأخبار المروية في النهي عن القول في القرآن بالرأي .

١ –جامع البيان في تفسير القرآن /لابن جرير الطبري،١/ ٦٠٥.دار الفكر –بيروت ، ١٩٧٨م

- الحث على العلم بتفسير القرآن ومن كان يفسره من الصحابة ، وأن الأمة ملزمة بمعرفة تأويل القرآن ، وذكر بعض الأخبار التي غلط في تأويلها منكرو القول في تأويل القرآن .

وهنا نضع أيدينا على فرضية نستشعر من خلالها أن الرجل يواجه موقفاً خاصاً يريد أن يدلي بدلوه فيه وهو أن التفسير جائز بشروطه وضوابطه ومعرفة علومه وبعض الأمور المتعلقة بالقرآن الكريم وهو ما ذكره سابقاً في مقدمته وما سيذكره بعد ذلك – وأن هناك من وقف موقف المعارضة أو الإنكار لتفسير القرآن ، وأعتبر أن ذلك جرأة على كتاب الله ومن خلال هذه النقطة أيضاً يضع الطبري أو يوضح منهج التفسير المحمود والتفسير المذموم وهو ما يسير في نفس اتجاه الموقف أو القضية والتي قد لا أذهب بعيداً إذا قلت إنها إنما كانت أحد الدوافع التي حملت المؤلف على وضع هذا التفسير .

ويختم الطبري موضوعات المقدمة بموضوع :

" القول في تأويل أسماء القرآن وسوره وآيه وبيان أن القرآن بمعنى القراءة ، وأن المكتوب يسمى كتاباً في قول العرب وبيان ذلك . ثم بيان أسماء سور القرآن التي سماها النبيﷺ وذكر الشواهد مع ذكر أسماء سور القرآن من كلام العرب وجمع السور ومعنى السورة [1] .

وفي كل منحى ينحوه الطبري في ثنايا مقدمته يعتمد أولاً على ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم عن الصحابة رضي الله عنهم لا يحيد عن ذلك ، بل وينادى باتباع منهجه هذا والتقيد به .

وقد لا نأتي بجديد إن قلنا : أن الطبري هنا كان يرسى القواعد لمدرسة التفسير الأثري الذي أثرى منها الكثير وسار على منوالها الكثير الكثير .

وإذا ذهبنا نبحث عن الدوافع التي دفعته سواء لوضع التفسير أو للمقدمة، والتي افترض أنها مفتاح هذا التفسير ، فانا نجد أن التيارات العقلية في زمنه كانت تهب ريحها قوية عنيفة في تعصب حيناً وفي مذهبية جارفة وجنوح وانحراف أحياناً .

وأنها كانت تعارض النصوص وتناوئ المأثور وتنادي في تبجح وحمق " لا رأي إلا للعقل " وفي جرأة جريئة قامت تلك المذهبية المتطرفة

[1] – انظر جامع البيان في تفسير القرآن/ الطبري/ ١/ ٣٢-٣٦ – دار الفكر العربي – بيروت – ١٩٧٨م

بحملة " تكفير الصحابة تولاها الخوارج والرافضة وكان من الطبيعي أن يقف الأمام السلفي في وجه هذه التيارات الصادرة وأن يكافح في سبيل متجهه والدفاع عنه ولم يجد أمامه إلا أن يقابل العنف بالعنف وأعلن كفر المخالفين لآراء السلف وكفر من كفر الصحابة .

هذه النزعة السلفية الأصيلة المتمكنة منه هي التي دفعته إلى أن يكون الطابع العام لتفسيره هو الاعتماد على المأثور عن النبي ﷺ وعلى آراء الصحابة وتابعيهم [1]

خلاصة القول : أن مقدمة الطبري كانت دفاعاً عن منهجه السلفي ضد مخالفيه وضد مدرسة (لا رأي إلا العقل) .

[1] – الطبري ومنهجه في التفسير – د: محمود بن الشريف ص٧٤-٧٥ .شركة عكاظ –جدة –ط أولى– ١٩٨٤

الزمخشري (القرن الخامس)
٤٦٧ هـ ٥٢٨

بدأ جار الله الزمخشري خطبة كتابه : الكشاف بامتداح وإطراء علم التفسير ووصفه بأنه علم لا يستطيع تعاطيه وإحالة النظر فيه إلا رجل برع في علميين مختصين بالقرآن وهما:

- علم المعاني .
- علم البيان .

وهنا نجد أن الزمخشري لم يسر كما سار الكثير من المؤلفين بوضع مقدمات في علوم القرآن والاهتمام بالشروط والواجبات بل نجده يختزل كل ذلك في (المعاني – البيان– ودورهما في بيان وإظهار إعجاز القرآن الكريم) .[1]

وعليه فقد كان الزمخشري واضح الفكرة محدد الهدف وهو معالجة آيات الكتاب الكريم واستخراج ما حوته من إبداع وإعجاز دون أن يلجأ إلى مقدمات توصل لهذا العلم ألا وهو علم التفسير .

ابن عطية (القرن الخامس والسادس)
:عصره ٤٨١ – ٥٤٦ هـ

عاش ابن عطية في عصر المرابطين بالأندلس حيث كانت الحركة العلمية في هذا العصر منتعشة ونشيطة ومزدهرة في قرطبة وغرناطة واشبيلية وقد كان من أهم الأسباب التي أنعشت الحركة العلمية في هذا العصر أن ملوك المرابطين وقادتهم كانوا يشجعون العلم والعلماء ويشاورنهم في جميع الأمور ، ويصطحبونهم في غزواتهم ضد الأسبان ، ولا عجب في ذلك فقد قامت دولتهم على أساس ديني وهو الجهاد في سبيل الله ، فكان من الطبيعي أن يعتمدو على العلماء .

وقد حظي المذهب المالكي دون غيره برعاية ملوك المرابطين وفي هذا العصر أيضاً نهضت العلوم الدينية كالفقه والحديث ، والتفسير

(١) الكشاف للزمخشري ١/١٣-١٤ دار الكتاب العربي انظر المقدمة

والقراءات وعلوم اللغة والنحو والتاريخ وأدب الكتابة وفن الشعر ، ولا شك أن ابن عطية قد تأثر تأثراً كبيراً بهذه الأجواء سواء السياسية أم العلمية ، (حيث جاهد في صفوف المرابطين ، كما ولاه المرابطون منصب القضاء).[1]

أما هدف ابن عطية من وضع هذا التفسير فهو كما أعرب عنه بقوله " فلما أردت أن أختار لنفسي وأنظر في علم أعد أنواره لظلم رمسي علمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم ، فوجدت أمتنها حبالاً وأرسخها جبالاً علم كتاب الله جلت قدرته ،وأيقنت أنه أعظم العلوم تقريباً إلى الله تعالى وتخليصاً للنيات فثنيت إليه عنان النظر ففرعت إلى تعليق ما ينخل لي في المناظرة من علم التفسير ، وقصدت أن يكون جامعاً وجيزاً... الخ [2].

وإذن فقد كان هدفه المعلن لوضع التفسير هو خدمة العلم وابتغاء وجهه تعالى .

أما المقدمة فقد قدم لها بقوله " ولنقدم بين يدي القول في التفسير أشياء قد قدم أكثرها المفسرون وأشياء ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم مجتمعه لذهنه ، ثم ذكر أبواب المقدمة .

هذا التقديم الذي افتتح به أبواب المقدمة يدلنا على أن إدراج المقدمات قبل التفسير إنما هي سنة مضى عليها السابقون وتابعهم من جاء بعدهم فلم يشأ المفسر أن يتخلى عن سنة سابقية وإن أوما بأنه سيضيف إليها.

ولنمض مع مقدمات ابن عطية لنجدها مرتبة كما يلي :

أولاً : فضل القرآن :

من خلال إطلاعنا على هذه المقدمة نجد أن المؤلف يمضي قدماً في السير على خط منهجي سبقه إليه جل المفسرين من قبله بالكتابة في هذا الموضوع ، ولعل هذه المقدمة التي بدأها في " فضل القرآن " هي ما نعاها القنوجي " صاحب كتاب منهج البيان في التفسير "(على الكثير من المفسرين الذين دأبوا على وصفها في مقدماتهم دون التفات إلى ضعف أحاديثها كما يرى أن أحاديث فضائل القرآن سورة سورة موضوعة

(١) ابن عطية ومنهجه في تفسير القرآن الكريم – فايد عبد الوهاب فايد ،ص٦٧
(٢) انظر مقدمة المحرر الوجيز – لابن عطية ١/٥-١٢– دولة قطر –ط الأولى – ١٩٧٧

مكذوبة وأن كان القنوجي قد ذكر- فيما ذكر – صاحب الكشاف ، والثعلبي) ولم يتطرق إلى ذكر ابن عطية .

ويسوق المفسر تحت هذا الفصل أحاديث كثيرة للرسول ص في هذا الشأن خاصة

ثانياً : باب في فضل تفسير القرآن والكلام على لغته ، والنظر في إعرابه ، ودقائق معانيه .

وهو باب قصير ذكر فيه المؤلف عدداً من الأحاديث في فضل القرآن الكريم ، وإعرابه وحسن قراءته . ويظهر من قراءة هذا الباب أن اللغة العربية تعد محوراً أساسياً في اهتمام المؤلف وانه يسعى إلى إبرازه وتكثيفه من خلال التفسير.

ثالثاً: باب في الكلام في تفسير القرآن ، والجرأة عليه ، ومراتب المفسرين و هذا الباب يكاد يشكل هاجساً لدى المفسرين في مقساتهم ، لا يكاد مفسر من المفسرين يدلف إلى مجال التفسير دون أن تحين منه التفاته قصيرة أو طويلة إلى هذا الباب ، مما يرسم علامة استفهام كبيرة عن أهمية ذلك ولماذا ؟

وفي هذا الباب – يسوق المؤلف حديث الرسول ﷺ (من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ).

ويحرص المؤلف في هذا المجال أن يقدم العذر لنفسه بأن لا يكون من أصحاب الرأي المذموم وأن المأثور هو منهجه وسبيله ولا أدل على ذلك من أن يقدم في الباب نفسه ، طبقات المفسرين وعلى رأسهم علي بن أبي طالب ، فابن عباس . ثم التابعين المتقدمين والمتأخرين .

رابعاً : باب الأحرف السبعة :

يقول ابن عطية " اختلف الناس في معنى هذا الحديث اختلافاً شديداً ذهب فريق من العلماء إلى أن تلك الحروف السبعة ، هي فيما يتفق أن يقال على سبعة أوجه فما دونها ، كتعال وأقبل وإلي، ونحوي ، .....الخ

وقال فريق من العلماء ان المراد بالسبعة أحرف معاني كتاب الله تعالى وهي أمر ونهي ، ووعد ووعيد ، وقصص ومجادلة وأمثال وهذا أيضاً ضعيف إلى أن يقول : " ونقول في الجملة أن القرآن منزل على

سبعة أحرف من اللغات ، والإعراب ، وتفسير الأسماء والصور ، وان مفترق في كتاب الله ليس بموجود في حرف واحد وسورة واحدة (١)

وقد أطال وأسهب ابن عطية وأجال النظر في وجهات المتقدمين في موضوع الأحرف السبعة ونقل كلاماً مطولاً عن القاضي أبي بكر الباقلاني ، ثم رد عليه بكلام يطول شرحه (٢) .

خامساً : ذكر جمع القرآن وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره وفي ذكر الألفاظ التي في كتاب الله وللغات العجم بها تعلق وينقل المؤلف في هذا الباب قول أبو عبيدة " أن في كتاب الله تعالى من كل لغة)).

كما ذهب إلى القول أن القرآن ليس فيه لفظه إلا وهي عربية صريحة وأن الأمثلة والحروف التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغتان فتكلمت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد .. وساق لذلك أمثلة .

ثم يختتم هذا الموضوع بارتضاء الركون إلى رأي القاضي أبي محمد والذي يرى أن القاعدة والعقيدة هي أن القرآن نزل بلسان عربي مبين فليس فيه لفظه تخرج عن كلام العرب فلا تفهمها إلا من لسان آخر ... الخ (٣) وتابعه في هذا الرأي بنص اللفظ القاعدة والعقيدة الثعالبي – صاحب (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) في مقدمات التفسير .

سادساً : باب نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن :

وفي هذا الباب يذكر ابن عطية طرفاً من أقوال العلماء لينتهي إلى القول الصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة واحد من المخلوقين ..... وكتاب الله لو نزعت منه لفظه ثم أديرلسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفي علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام . (٤)

---

١ – المحرر الوجيز – أبن عطية ١/٣٤-٣٥

٢ – المحور الوجيز – ١/٤٠-٤١-٤٢-٤٣ .

٣ –المحرر الوجيز ١/٥٧ ، ٥٨

٤ –المحرر الوجيز ١/٦٠ ، ٦١

القرطبي (القرن السادس – السابع)
(٦٧١)*

يبدأ الفصل الأول من مقدمات القرطبي بمجموعة من الآثار المروية عن النبي ﷺ وعن الصحابة في فضل القرآن وتحت عنوان (باب ذكر جمل من فضائل القرآن والترغيب فيه) وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به.

وفي هذا الباب يحشد القرطبي جملا وفوائد في فضل القرآن ويستدل بالحديث القدسي (من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته افضل ما أعطي السائلين) .

أما باب :

(كيفية التلاوة لكتاب الله تعالى وما يكرم منها وما يحرم واختلاف الناس في ذلك) فهو يختص بتوجيه القراء وارشادهم إلى إجادة وتحسين الصوت والتغني بالقرآن أثناء التلاوة ومتى يحسن رفع الصوت ومتى لا يحسن وكيفية قراءة النبي ﷺ والصحابة .

وفي الباب الثالث يحذر أهل القرآن والعلم من الرياء مستشهداً بالكثير من الآثار في هذا الصدد، كما يحذر من اتخاذ القرآن سلعة للتباهي والرياء .

ويخصص الباب السادس " لبيان فضل تفسير القرآن وأهله" داعياً إلى الحض على إعراب القرآن وفهم معانيه وان ذلك لايتم إلا بمعرفة علم النحو العربي والتماس غريب الشعر مستشهداً بمواقف ابن عباس في تفسيره لغريب القرآن بكلام العرب وشعرهم . ثم يبين في الأبواب السابع والثامن والتاسع مدى حرص صحابة النبي ﷺ على فهم آية واحدة أكثر من حرصهم على حفظه دون فهم.

ويفسر في الباب التاسع حديث السيدة عائشة "ما كان رسول الله يفسر من كتاب الله إلا آياً بعدد علمه إياهن جبريل "وقد حمله على ما حمل من قبل ابن عطية واعتبار ذلك من مغيبات القرآن وتفسير المجمل ،

(*) (لم تشر المراجع التاريخية إلى السنة التي ولدفيها القرطبي ولكنها تتفق جميعا على السنة التي مات فيها، بل وتحدد يوم وفاته وأنه كان ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١هـ) . القصبي محمود زلط ــ القرطبي ومنهجه في التفسير /ص ٦ دار القلم – الكويت. ١٩٨١

ومن هنا يفتح الباب ليدخل إلى عالم التفسير ، بما عرفه من علم وبما وفق إليه من فهم لكتاب الله ، مما جعله من المؤهلين لافهام غيره ، تفسير وتأويل آيات الكتاب العزيز .

ثم يفسر حديث الرسول – ﷺ– "من قال في القرآن برأيه فأخطأ فقد كفر"* بأن المقصود الهوى كما انه يستشهد بابن عطية ثانيا في قوله "ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى كتاب الله عز وجل فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول"(١)

ثم تتوالى أبواب المقدمة في تفسير القرطبي بالعناوين التالية :

باب تبيين الكتاب بالسنة وما جاء في ذلك .

- باب كيفية التعلم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه – ﷺ– وما جاء انه سهل على من تقدم العمل به دون حفظه.
- باب معنى قول النبي – صلى الله عليه وسلم – " أن هذا القرآن أنزل على سبعه أحرف فاقرءوا ما تيسر منه " ص ٨٨-٨٩
- باب ذكر جمع القرآن وسبب كتب عثمان المصاحف وإحراقه ما سواها وذكر من حفظ القرآن من الصحابة – رضى الله عنهم – في زمن النبي ﷺ
- باب ما جاء في ترتيب سور القرآن وآياته وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره وعدد حروفه وأجزائه وكلماته وآيه .
- باب ذكر معنى السورة والآية خارجة عن لغات العرب أو لا .
- باب ذكر نكت في إعجاز القرآن وشرائط المعجزة وحقيقتها .
- باب التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور القرآن وغيره .
- باب ما جاء من الحجة في الرد على من طغى في القرآن وخالف مصحف عثمان بالزيادة والنقصان.

وهكذا جمع القرطبي في مقدمته كل ماله علاقة بالقرآن من قريب أو بعيد بدءا بنزوله كوحي على النبي ﷺ وانتهاء بكتابته وتوزيعه ، جامعا فيما بين هذا وذاك ، كل ما يتعلق بفضله

(*) الحديث : لم أعثر عليه بلفظه ؟

١- الجامع لأحكام القرآن . أبى عبد الله حمد الأنصاري القرطبي . ١/٨٠ ومن ٨٤ – ١٢٧_ لمقدمة _دار الغد العربي _ القاهرة –ط. الأولى ١٩٨٨

وأدبه وشروطه كعلم يتلى ويتعامل به وكتفسير لأفضل كتاب أنزل من رب العالمين ، وعلاقة ذلك بالعالم والمتعلم

أو بعبارة أخرى فإن القرطبي لم يترك في مقدمته شاردة أو واردة ، ذكرها المفسرون من قبله ولها علاقة بالقرآن والتفسير إلا ذكرها بل أثبتها فيها ولا غرو بعد ذلك أن تأتي مقدمته من أطول المقدمات ، نظرا لما حوته من أبواب، إضافة إلى حرص المؤلف على أن يذكر في هذه الأبواب كل ما علمه وحواه علمه وتمرسه إن في علوم القرآن وأقسامه أو شروط المفسر وآدابه، إضافة إلى منهجه في عدم جواز التفسير بالرأي المذموم.

خامسا :ابن كثير :

بدأت مقدمات ابن كثير بموضوع.

أهمية التفسير :

وتتبع أهمية التفسير لدى ابن كثير من كونه واجبا على علماء الأمة وهو ينقسم إلى قسمين:

- قسم الكشف عن معاني كتاب الله .
- القسم الثاني تعليم هذا الكتاب .

وهو واجب ألزم المؤلف نفسه به من خلال تأليف هذا الكتاب والذي يعتبر ترجمة على أرض الواقع للواجب وأهم ما جاء في هذا البيان ، هو وجوب الكشف عن معاني كلام الله على العلماء وتفسير ذلك وطلبه من مظانه مستدلا بآيات الكتاب الكريم من مثل قوله تعالى ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ [1]

أما ثاني موضوع يتناوله ابن كثير فهو طرق تحصيله وهي كما اعتمدها بقوله:

"الغرض أن نطلب تفسير القرآن منه ، فإن لم نجده فمن السنة فإن لم نجد رجعنا إلى أقوال الصحابة كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، وأقوال التابعين ثم ساق طبقات المفسرين من التابعين كمجاهد وسعيد ابن جبير.[2]

---

(1) الآية :٧٧ سورة : آل عمران

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/١ دار المعرفة – بيروت ١٩٦٩م

ثم ألتفت إلى قضية أخرى متعلقة بهذا المجال وهي هل تعد تفاسير التابعين حجة أو لا واختلاف العلماء حول ذلك مما يدل على المنهج الأثري الذي رسمه المؤلف لنفسه من خلال تفسير القرآن الكريم.

يقول ابن كثير :موضحًا رأيه في هذا الموقف تجاه التابعين

(.....تذكر أقوالهم في الآية فيقع في عبارتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً ،وليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي) [1]

غير أنه يقف في صف من رأى أن أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير ؟ بمعنى أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم .أما إذا أجمعوا على الشي فلا يرتاب في ذلك.[*]

أما القضية الثالثة عند ابن كثير فهي الحديث عن الإسرائيليات :

وتنقسم عنده إلى أقسام ثلاثة هي :

١. ما علمنا صحته وعندنا ما يشهد على صدقه .
٢. ما علمنا كذبه وعندنا ما يخالفه .
٣. ما هو مسكوت عنه .

ولعل منهج ابن كثير حيال هذا القسم قد اتسم منذ البداية بالوضوح واستقامة المنهج حتى يسير قارئ التفسير منذ البدء على نهج بين ، وهي خطوة أحسب أن أحداً لم يتطرق إليها ممن سبقه من المفسرين ، خاصة وهو يذكر منذ البداية أن الإسرائيليات في تفسيره إذا ذكرت فهي تذكر للاعتضاد لا للاستشهاد.

ثم يلتفت أيضاً إلى تحرج الكثير من السلف عن تفسير القرآن لاعتباره رواية عن الله .

القضية الرابعة في مقدماته خصصها للحديث عن :

جواز التفسير للعالم به :

وهو يرى في قضية الخلاف المثارة بين العلماء حول منع التفسير اعتماداً على تأويل بعض الأحاديث الواردة بهذا الشأن أن التفسير جائز للعالم به وإنما كان المنع لمن لم يعلم ، إذ يقول "فأما من تكلم بما يعلم من

---

(1) تفسير القرآن العظيم /مرجع سابق ٥/١

(*) المرجع السابق /نفس الموضع

ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه وبهذا روي عن هؤلاء أقوال في التفسير ومعني ذلك أنهم تكلموا فيما عرفوا وسكتوا عما جهلوه ، قال وهذا هو الواجب.

وخامس قضية أثيرت في مقدمات ابن كثير هي قضية ترتيب السور :

وقد أهتم فيها المؤلف بما نزل بالمدينة من سور قرآنية وعدد آيات هذه السور ، واختلاف العلماء حول عدد الكلمات والحروف .

ثم أسماء السور ، الآية – العلامة – والكلمة ولعل أهم ما يلتفت إليه في هذا الموضوع هو توقف المؤلف عند موضوع ترتيب السور في عداد النزول ، إذ يرى أن أهمية ذلك تكمن في ترتيب القضايا التشريعية في القرآن الكريم ، وبيان الناسخ والمنسوخ ، وهذا الاهتمام يدل على خطورة الموضوع وأثره البعيد في بيان المراد من تفسير القرآن الكريم.

أما الموضوع الآخر وهو الاختلاف حول أسماء وأعداد الكلمات والسور ، فلست أرى فيه مزيد أهمية إذ لا علاقة - فيما يبدو – تربط بين العدد والمعنى في المفسر من الآيات ، ولا يضيف مزيد فائدة في التأثير على مضمون الآية أو السورة من حيث المعني والهدف .

القسم الثاني : المعاصرون

نتلمس من خلال مقدمات هذه الفترة مواضع الابتعاد أو الاقتراب ، ومواطن التقليد أو التجديد ، ومظاهر الجمود أو التطور من القرن الثالث عشر الهجري

أولاً : الألوسي (١٢١٧- ١٢٧٠ هـ)

أنا إذا ألقينا نظرة على مقدمة تفسير الألوسي نجد الكثير من أوجه التشابه في موضوعات المقدمات ، غير أن صاحب روح المعاني ، لم يرد لمقدماته أن تكون مجرد واجهات شكلية أو افتتاحات تقليدية منقولة وارثاً عن وارث ، أو لاحقاً عن سابق ، بل جعل من هذه المقدمات ميداناً صال فيه وجال وقلب الفكر والنظر ، ودافع دفاع المستميت ، عن مذهبه وعقيدته السنية في مقابل مخالفيه من الشيعة خاصة .

وقد مكنه من ذلك رسوخ قدمه وثقافته اللغوية ، فوجدناه من خلال مقدماته صاحب قضية ، بل قضايا كثيرة تشغله ، اثر أن يدونها قريباً من تفسيره لمعاني كتاب الله ، وهي إشارة منه إلى أن التفسير هو ساحتها.

كانت مقدمته الأولى أو كما يسميها بالفائدة الأولى ، في موضوع معنى التفسير والتأويل وبيان الحاجة إلى هذا العلم وشرفه . وهي تركز على مدى الحاجة القصوى لهذا العلم

أما الفائدة الثانية فهي تتحدث عن :

أ- ما يحتاجه المفسر .

ب- معنى التفسير بالرأي .

فهو يؤكد من ((أولاً)) وحتى ((سابعاً)) على أدوات المفسر والتي لا يجوز أن يكون خالي الوفاض منها ، وهي اللغة ومعرفة أحكام العربية ، من جهة الإفراد والتركيب وسبب النزول والنسخ وأصول الفقه منتهياً بعلم القراءات. (١)

---

(١) روح المعاني . شياب الدين محمود الألوسي ١/ ٤-٦ دار إحياء التراث العربي –بيروت– بدون سنة الطبع

* الحديث :أخرجه الترمذي في السنن / سنن الترمذي — مصطفى الحلبي —٢٩٥٠-٢٩٥١

وأما التفسير بالرأي ، فيورده مقرونا بالحديث المعروف وهو قوله ﷺ ((من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)).

أو قوله ﷺ ((من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ))(*)

فيرى أولاً :أن الحديث الثاني فيه نظر ، ويحمل هذا الحديث على أن ذلك فيمن أراد بالقرآن قولاً يوافق هواه بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً له.(١)

ويرى ثانياً : أن الأدلة على جواز الرأي والاجتهاد في القرآن كثيرة وهي تعارض ما يشعر بالمنع فقد قال تعالى " ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم".(٢)

وقال تعالى : "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ".(٣)

كما يستشهد بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأبن عباس بقوله " اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل .

وهو بهذا المنهج إنما يؤصل لمعنى التفسير بالرأي ، ويرى أنه من غير الضرورة أن يكون الرأي خارجا أو مذموما .

لينتهي في هذا المجال إلى أن المدرك المتبحر في علم اللسان والعلوم الدينية يستطيع إدراك إعجاز القرآن بالوجدان .

ثم يلتفت إلى إشارات الصوفية وهو يستحسن المنهج الإشاري ويفرق بينه وبين نهج الباطنية الملاحدة كما سماهم ، بل ويؤكد أيضا أن للقرآن تفسيرا ظاهرا منه كما أن له تفسيرا باطنا .

مستدلا بقول ابن عباس " القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون لا تنقضي عجائبه ولا تبلغ غايته .

أما في الفائدة الثالثة ، فقد خصصها :

" أسماء القرآن " تحقيق لفظه قرآن ، حيث نقل آراء الكثير من العلماء حول اشتقاقات اللفظ المختلفة .

والفائدة الرابعة في أن القرآن (كلام الله تعالى غير مخلوق وإثبات أن هناك كلاما نفسيا أو حديثا للنفس سمى كلاما .

(*) الحديث:قال الألوسي أخرجه : أبو داود والترمذي والنسائي.

(١) روح المعاني / مرجع سابق ٦/١

(٢) الآية : ٨٣ سورة :النساء

(٣) الآية :٢٤ سورة : محمد

وأن كلام الله تعالى صفه أزلية مختلفة عن الخرس الإنساني المسمى حديث النفس وأن لله كلمات غيبية هي ألفاظ حكمية مجردة عن المواد ويعتمد في هذا الموضوع اعتمادا على صاحب المواقف في نقل ما جاء في تحقيق لفظ الكلام ، والسيد البطليوسي ، وما دار بين علماء الكلام من معارضات في هذا المجال .

بل يفرد لكل واحد من هؤلاء العلماء صفحات بأسمائهم ، وهذا موضوع طويل قد لا يضيف كثير فائدة في مجال التفسير إلى القارئ غير مماحكات بين أهل الكلام والأشاعرة)(١)

وكان من الأحرى به وهو يكتب مقدمة لتفسير كتاب الله ، أن يكتفي بلب المقصود وعلاقة الموضوع بالقرآن كما كان الحال مع الشيعة ، في الذب عن قدسية الكتاب أو إزالة إشكال نشأ عن قصد أو هوى غير خالص .

الفائدة الخامسة جاءت لبيان المراد بالأحرف السبعة والوجوه الكثيرة المتفقة والمتباينة التي حملها عليها العلماء وهل المراد بها :

١- الشكل .
٢- التكثير .
٣- القراءات السبع .
٤- سبعة أوجه .
٥- كيفية النطق بالتلاوة .
٦- سبعة أصناف .
٧- سبع لغات وقد انتهى فيها إلى ترجيح هذا الرأي الأخير.

وكانت الفائدة السادسة في جمع القرآن وترتيبه منذ عهد النبي ﷺ حتى أبي بكر الصديق ، لينتهي بتسجيل رضى الصحابة رضوان الله عليهم عن عمل عثمان أولا ثم يلتفت ليرد مزاعم الشيعة ، حيث يورد أدلتهم ويرد عليها ويفندها .ثم موقفه من القراءات في مصاحف الصحابة منتقلا أخيرا إلى ترتيب الآيات والسور .

أما الفائدة السابعة : فهي للأعجاز .

وفيها يرد على القائلين بأن الإعجاز بالصرفة ، ويفند هذه الفكرة ، ثم يعكف على إيراد أوجه الأعجاز المختلفة والاختلاف حولها .

---

(١) انظر روح المعاني للألوسي /مرجع سابق ص ١٠ - ١٩

وفي بلاغة القرآن لا يكتفي أو يتوقف عند القول بأن أخباره بالغيب سبب الأعجاز لأن هذا واقع في بعض الآيات دون البعض الآخر ، فهل يطعن هذا في بقية الآيات أو ينزل بالباقي عن مرتبة الأعجاز ؟ وهذا ما يرده جملة وتفصيلا .

كما يعتبر أن نظم القرآن هو وجه من وجوه الإعجاز . إضافة إلى الأخبار عن الأمور المستقبلة وما فيه من المعارف الإلهية وبيان المبدأ والمعاد فأعجازه ليس براجع إلى القرآن من حيث هو قرآن بل لكونه حاصلا من غير سبق تعليم وتعلم فظهر أن الأعجاز المختص بالقرآن متعلق بنظمه المخصوص .

ثم يقف طويلا عند اللغة العربية ، وفي أكثر من منعطف يؤكد حاجتنا الماسة لفهم معاني القرآن الكريم وتفسيره أكثر من حاجة الصحابة إلى ذلك .

وهو لا يتحرج في الدفاع عن التفسير بالرأي ، وهي مفارقة خالف فيها كثيرا من السلف ، ويوجه أحاديث المنع توجيهات تعتمد على ضلاعة فائقة في اللغة وحسن تدبر وفهم لآيات القرآن الكريم ، بما يعضد موقفه واتجاهه .

من القضايا التي أثارها الألوسي وبدا لنا منها أنه يعمق خطه المنهجي في التفسير استحسانه واستصحابه للتفسير الإشاري . وهذا منعطف آخر خالف فيه مفسري السلف ومنهج التفسير بالمأثور.

مؤكدا على أن للقرآن تفسيرا ظاهرا وباطنا ويستشهد في ذلك ويسترشد بأقوال الصوفية حتى في تحقيقاته لمعاني الألفاظ والمفردات وكثيرا ما يردد عبارة ((وقد قال سادتنا الصوفية أفاض الله علينا وعليهم من فتوحاته القدسية)) .

ويعطف على ذلك استرشاده بأصحاب علم الكلام أيضا وما أثاروه من قضايا كلامية في تحقيق معنى القرآن و المقصود بالكلام النفسي مسترسلا في هذه القضية استرسالا مملا ، ناقلا ومناقشا دون أن يترك لذلك أثرا ذا أهمية تذكر كما أشرنا إلى ذلك . ثم يدخل في سجال طويل مع الشيعة رادا على مزاعمهم في جمع القرآن ، أو في ادعاءات النقص أو الزيادة بحجج قوية وأدلة ناصعة تنم عن طول باع في سبر أغوار هذا العلم وهذه القضية وتمكن من ناحية الجدل فيها (بسبب مراسه للأساليب الشيعية في البحث والتفسير ، وانفراده بمجاراتهم في مراقيهم العلمية واضحا في كتابه المسمى " الأجوبة العراقية " تناول فيه

مسائل من معضلات المباحث العالية في الحكمة والرياضيات ، كان رجال من علماء الشيعة بإيران قد وجه بها إلى العراق على معنى الإلجاء والتعجيز لأهل البيئة العلمية السنية) .([1])

وقد ساهم الألوسي بقلمه وفكره في رد الضعيف ، ونفي الزيف عن الصحيح المؤكد في موضوعات مقدمته ، سواء في قضية الإعجاز القرآني أو البلاغة القرآنية ، ولم يقف عند منهج السابقين في نقل المأثور فحسب والالتزام بما سطروه .

[1] -التفسير ورجاله - محمد الفاضل ابن عاشور - دار الكتب الشرقية - تونس - طبعة ١٩٧٢- ص٢٠١.

ثانيا :أبو الطيب القنوجي :
(١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ)

صاحب تفسير " فتح البيان" وهو من علماء الهند ، في القرن الثالث عشر الهجري[١] بدأ المؤلف مقدمته ، بوضع تعريف للتفسير ، لم يخرج فيه عما قرره سابقوه من السلف قبله.

وفي فصل آخر يذكر تاريخ التفسير منذ عهد الصحابة ، مرورا بالتابعين ومن جاء بعدهم ، وتطرق إلى طبقات المفسرين ، وانتقد بعض هذه التفاسير التي ذكر بعضا منها واضعا يده على مواطن العلة والضعف فيها ، مثل قوله "ثم ألف في التفسير طائفة من المتأخرين فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال بتراء فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل ، ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في شي من العلوم ، ومنهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن و اقتصر فيه على ما تمهر هو به فيه ... إلى أن يقول ، والمبتدع ليس له إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد " كما نقل عن البلقيني أنه قال استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش. ثم ينتقل إلى نوع آخر من الذين دخلوا مجال التفسير وهم من أسماهم بالملاحدة ، حيث يقول " والملحد لا تسأل عن كفره وإلحاده في آيات الله وافترائه على الله ، كقول بعضهم في تفسير قوله تعالى " إن هي إلا فتنتك "[*] ما على العباد أضر من ربهم وينسب هذا القول إلى صاحب قوت القلوب .

ويقول أما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير .[٢]

أما في الفصل الثاني فيقسم التفسير إلى أقسام :

١. ما استأثر الله بعلمه .

٢. ما أطلع الله عليه الرسول ﷺ فلا يجوز الكلام فيه .

علوم علمها الله نبيه وأمره بتعليمها وهو على قسمين :

---

(١) أبي الطيب صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي البندي. من علماء التفسير والحديث والأصول . له :ثر من ٢٢كتاب .

(*) الآية : ١٥٥ سورة : الأعراف

(٢) فتح البيان ١/ ١٤-١٦ مرجع سابق

أ- ما لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السماع ، كأسباب النزول والناسخ . القصص .....الخ.

ب- ما يؤخذ بطريق النظر والاستنباط وهو قسمان :

(١) قسم اختلفوا في تأويله وهو المتشابهات .

(٢) قسم اتفقوا عليه وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية والإعرابية وما عدا هذا فهو من قبيل التفسير بالرأي الذي نهى عنه .

ثم يذكر كتب التفسير المختلفة ويرى أن أحسنها هو كتاب الشوكاني وأهم حسنات هذا التفسير أن صاحبه يعرب عن منهجه المتبع في التفسير، بعد ذلك يتحدث عن

أنواع التفسير بالرأي ، المنهي عنه ويحصرها في خمسة أنواع وهي :

١- التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير.

٢- تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله .

٣- التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعا له .

٤- التفسير بأن مراد الله سبحانه وتعالى كذا على القطع من غير دليل.

٥- التفسير بالاستحسان والهوى والتقليد .

فهو هنا يضع كشافا ودليلا للمفسرين من حاد عن ذلك فقد وقع في المنهي عنه والتفسير المذموم ، ولعل ما جاء به المؤلف ليس جديدا في مجال علوم القرآن ولكنه جديد نسبة إلى من سبقه من المفسرين القدامى في مقدماتهم خاصة ، ويعد ما جاء به _ إن صح هذا الاعتبار - تأصيلا لنوع من أنواع التفسير ووضع قواعد لمنهج التفسير المذموم.

على أن التفسير الذي يرتضيه المؤلف ويأخذ به حسب رأيه ومنهجه هو "تفسير كتاب الله جل جلاله باللغة العربية حقيقة، ومجازا إن لم تثبت في ذلك حقيقة شرعية ، فإن ثبتت فهي مقدمة على غيرها ، إذا ثبت تفسير ذلك عن الرسول ﷺ ثم تفسير علماء الصحابة المختصين برسول الله ﷺ

أما تفاسير التابعين فهو يرى أنه على الخيار بالنظر في صحتها إن كان عن طريق الرواية سواء كان المروى عنه الشارع أو أهل اللغة وإن كان بمحض الرأي فليس ذلك بشي.

أما منهجه المتبع في التفسير فهو يوضحه كالتالي :

"وهي خطة ، تنم عن تطور عميق لمفهوم التفسير والمنهج ، وكما أنها خطوة للأمام في سبيل تطوير التفسير ، قل أن وجدنا لها نظيرا عند علماء السلف "، ومنهجه هو :

١) أن يعزو الحديث إلى راويه من غير بيان لحال الإسناد لأنه كما يقول : (آخذ من الأصول التي نقلت عنها كذلك) .

٢) اختصار ما تكرر لفظا وأتحد معنى بقوله "ومثله" أو "ونحوه" يضيف إليها فوائد كما ذكر لم يشتمل عليها زبر أهل الرواية ووجدها في تفاسير علماء الدراية.

أما العلوم التي رأي أن عناية المتأخرين بها قليلة وأهتم بها فالسمعيات التي رأى أنها المطلب الأعلى والمقصد الأقصى .

التعويل على الأحاديث الصحيحة ، كما ينبغي معرفة المكي والمدني.

التأكيد على أهمية القرآن وفضله وفضل تفسيره مقررا أن الأحاديث الواردة في فضائل القرآن ، سورة – سورة ، أحاديث موضوعة ومكذوبه وقد نعى على الزمخشرى انتهاجه منهج تذييل تفسير السورة بفضلها مثله مثل الثعلبي الذي سار مساره .

وهو- على حد تعبيره_ مثله في عدم المعرفة بعلم السنة،

كما أن القنوجي يرى أن السيوطي في إتقانه قد استوعب على وجه البسط والاستقصاء ، وليس كلها داخلا في التفسير كما يرى .

أما مقدمات النيسابوري في تفسيره فهي في معظمها بعيدة عن علم التفسير.

وهكذا نجد أن مقدمات القنوجي تحمل هموما وشجونا ، وتشكل دافعا قويا حدا بالمؤلف إلى وضع هذا التفسير ، ووجدناه يضع القواعد ويرسي الأسس ، و يكشف اللبس ويزيل الكثير من الأوهام التي أحاطت ببعض مناهج المفسرين إن في التفسير أو علوم القرآن.

وهو يقف موقف الفاحص الناقد من كثير من هذه المناهج وواضعيها ليس مشخصا فحسب بل ومعالجا ، وموضحا ورادا على الكثير من الطوائف التي أقحمت على التفسير ما ليس منه بناء على

القواعد التي وضعها وسار على منهجها.من مثل ما واجه به تفسيرات الصوفية وأن ذلك لا يعتبر تفسيرا للقرآن إذ للتفسير قواعده وأصوله التي لا ينبغي الحيدة عنها كما هو الحال عند الصوفية.

ولعل من أهم ما جاء في مقدمته وأري انه جدير بالتوقف والنظر، محاولته الجدية والهامة في ربط ماله علاقة مباشرة وهي علوم القرآن في أسسها وضوابطها ، بتفسير الآيات وإيجاد تلك العلاقة التي ننشدها بين المقدمة وتفسير الآية. وهو موقف يحمد له وخطوة رائدة.

من خلال موقفه هذا يتبين لنا أن مقدمات التفسير يمكن أن تكون مجالا رحبا للأخذ والرد والاستدراك على السابقين والمعاصرين وتصويب المعوج إن أمكن ذلك ، وهذا ما لمسناه عند القنوجي.

ثالثا محمد رشيد رضا "وتفسير المنار"

(١٢٨٢ – ١٣٥٤ هـ)

ركز صاحب المنار كثيرا على مشكلات عصره وبدا هذا الهم بارزا واضحا من خلال مقدماته التي حاول فيها معالجة هذه المشكلات ووضع حلول لها من خلال تفسير القرآن وقد لا نذهب بعيدا لو قلنا إن محاولة تفسير القرآن كانت بداية لمعالجة وحل للكثير من المشكلات المعاصرة تلك التي لمسها وعايشها مؤلف الكتاب بدءا بالشيخ محمد عبده وانتهاء بالشيخ محمد رشيد رضا .

وهنا تبدأ نقطة الالتقاء والمفارقة في موضوع واحد هو موضوع المقدمات وهنا أيضا ينتقل الهدف ويتبدل من الشكل إلى المضمون .

ومن التقليد إلى التقنين والإفادة ، بل يتحول الشكل إلى قيمة واقعية لها ارتباط جوهري بمضمون كتاب الله .

بدأت موضوعات المقدمات تأخذ منحى آخر لم تعد فيه الأهمية الأولى للخوف والتحرج والمنع ، أو أعداد السور والكلمات، وليس تقليلا من شأن هذه الموضوعات أو تهوينا لقيمتها وعلاقتها بالكتاب الكريم بل لأنها قتلت بحثا وكتابة وشبعت دراسة وتكرارا دون تحقيق مزيد فائدة تذكر .

" بدأت مقدمة الكتاب بتوجيه نداء للمسلمين يذكرهم فيه بكتاب الله ووجوب فهم القرآن الكريم وأهمية دوره في إصلاح النفس الذي هو أساس إصلاح الفرد والمجتمع وما يترتب على ذلك فيما بعد من إصلاح السياسة ، والدليل على ذلك أن العرب لما تمسكوا بالقرآن سادوا وعزوا.

وفي ثاني موضوعات هذه المقدمة ، ينحى المؤلف باللائمة على بعض ألوان التفسير المتخصصة معتبرا إياها من الشواغل الصارفة عن المقاصد العالية في القرآن الكريم ، وذكر منها مباحث الإعراب في كتب التفسير ، واستنباطات الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفة ، والتعصب المذهبي ، الخرافات والإسرائيليات ".[1]

(1)تفسير المنار – محمد رشيد رضا ١/ ٤-٧ ،دار المعرفة –بيروت –ط الثانية – انظر المقدمة –

وخص بالذكر من المفسرين الفخر الرازي ، الذي زاد هذه الأعباء الصارفة عبئا آخر بإيراده العلوم الرياضية والطبيعية والنبات والحيوان في التفسير مما أدى إلى أن يقلده بعض المعاصرين ، واعتبر أن هذا الأمر من سوء حظ الأمة الإسلامية .

غير أنه يؤكد على أهمية استصحاب فنون العربية واصطلاحات الأصول ، كقواعد النحو والمعاني ومعرفة السنن الكونية ، وسنن الله تعالى لأن كل ذلك يعين على فهم القرآن وهو ما بينه وجلاه في :

الموضوع الرابع وهو .

أدوات التفسير الواجب اتخاذها ، ومنها أيضا الروايات المأثورة عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين وكان يرى أن ما صح من ذلك قليل .

الموضوع الخامس

والذي يستحوذ على اهتمام المؤلف أيضا هو التفسير بالمأثور وقد نحا به منحى آخر ، غاير منحى من سبقه من المفسرين ، ممن أكدوا على أهمية وضرورة اتباعه وهنا يقول صاحب المنار إن معظم التفسير المأثور سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب ، وهو يرفض كل ما جاءت به كتب التفسير من روايات لا تمت للمأثور بصلة داعيا إلى أهمية تنقيح المأثور وهي قضية جديدة لم يسبق إليها من قبل .

ومن أهم القضايا التي التفت إليها وحاول لفت الأنظار إليها قضية السنن الكونية – أي سنن الله في الكون والاجتماع وفي نظام الاجتماع البشري .

ومن قضايا المقدمة التي توقف عندها .

قضية (انصراف المسلمين عن التفسير) وسبب ذلك صعوبة تفسير كلام الله ووجه الصعوبة في هذا الأمر يكمن في كون القرآن كلاما سماويا والتفسير الذي يعنيه هو فهم الكتاب من حيث هو دين وهداية ، والتفسير له وجوه شتى ، منها النظر في أساليب الكتاب ومعانيه وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ، ليعرف به علو الكلام وامتيازه على غيره من القول .

ثانيا : الأعراب .

ثالثا : تتبع القصص .

رابعا غريب القرآن .

خامسا : الأحكام الشرعية ، من عبادات ومعاملات وما يستنبط منها .

والكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائفين ومحاجة المختلفين والمواعظ–و الرقائق –و الإشارة

ثم يعلق على ذلك كله بقوله .

" وقد عرفت أن الإكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي ، ويذهب بهم مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي ".[1]

ومن موضوعات المقدمة أيضا .

(الحاجة إلى التفسير وعدم الاستغناء عنه بالفقه) .

وهنا يرى صاحب المنار أن الأحكام الفقهية هي أقل ما جاء في القرآن وأن ما فيه من التهذيب ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة وإرشادها إلى طريقة الحياة الاجتماعية ،لا يستغني عنه من يؤمن بالله واليوم الآخر ، كما أن الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ، ولم يفصح عنها عالم ولا إمام .

قال : " ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ، ويصرفها عن الشر ، فإن الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل أنواع الضعف الذي نحن فيه .

أما أهم العلوم التي يحتاجها المفسر في نظر المؤلف فهي اللغة – البلاغة وعلم الإعراب والأساليب (المعاني والبيان) .

وعلم أحوال البشر ،حيث أمرنا الله بالنظر والتفكر والسير في الأرض لفهم إجماله بالتفصيل .

وعلم هداية البشر .

والعلم بسيرة النبي ﷺ وصحبه وما كانوا عليه من عمل وتصرف في الشئون الدنيوية والأخروية .

ومن موضوعات المقدمة أيضا .

(حاجة العرب اليوم إلى التفسير)

ويرى صاحب المنار أن في تثوير معاني وأهداف ومقاصد القرآن بدأ من العربية كلغة _ وهي لحمة وسدى القرآن الكريم _ سبيلا واضحا

---

(1) انظر مقدمة تفسير المنار ١/ ١٧،١٨ مرجع سابق

لنهوض الأمة من كبوتها ونبذ سلبيات وأمراض طرأت على الساحة في عصره أبرزها العصبية الجنسية بين العرب والأتراك وتسلط المستعمر أيا كان لونه وجنسه ودينه على اللغة العربية .

كما يرى في القرآن الكريم أنه الحامي لهذه الأمة من ضعفها البين. على أن العجمة والغربة اللغوية بحسب ظني هي أهم علة وضع عليها يده وهي حجر الزاوية المحرك لوضع هذا التفسير إيمانا من المؤلف أن في ذلك مساهمة فاعلة وجادة في حفظ لغة الضاد والنهوض بأمة الإسلام ، ويمضى المؤلف وهو يشخص الداء قائلا " العرب في حاجة إلى التفسير اليوم وذلك لانشغالهم بما كتبه الأقدمون وهو على خلاف فيه ، وعليه فالعرب جاهلون بحقيقة فهم القرآن ، وغير متدبرين ما فيه " .

ويلقى بالأضواء على صورة من صور التخلف في عصره وهي الاهتمام الشكلي الظاهري بالأداء الصوتي للقرآن دون تدبر للمعاني وهذا ما سماه بالجاهلية .

ثم يقارن بين هذا الوضع وبين ما كان عليه العربي القديم من فهم عميق لمعاني القرآن وتدبره ، كما أنه يرى أن دخول الأعاجم إلى الإسلام يحتم حفظ لغة العرب ولغة القرآن ، وذلك حين يقول أن القرآن هو حجة الله البالغة على دينة الحق ، فلا بقاء للإسلام إلا بفهم القرآن فهما صحيحا ، ولا بقاء لفهمه إلا بحياة اللغة العربية إلى أن حدثت العصبية الجنسية الجاهلية التي حرمها الإسلام فنادوا بنبذ العربية .

وفي نهاية مقدمته يرى المؤلف أن ما عليه المسلمون اليوم من ضعف لا يزول إلا باتباع هدي القرآن والرجوع إلى هدايته والاعتصام بحبله .

وأن أول خطوات تحقيق هذه العودة هو وضع هذا الكتاب " المنار".

ولعل أصحاب المنار ينطلقون في توجههم ونداءاتهم من خلال ما حفل به العصر الذي يعيشون فيه من آفات ومشكلات تبلورت وظهرت في العديد من المواقف سواء ما ذكرها الشيخ رضا في مقدمة التفسير أو في تاريخ ذلك العصر وتلك الحقبة الزمنية.

فقد ظهر الكثير من الدعوات الهدامة التي تستهدف قتل اللغة العربية الفصحى حصرها د.محمد محمد حسين في شعب ثلاث:

(تتناول أولاها اللغة فيطالب بعضها بإصلاح قواعدها ويطالب البعض الآخر بالتحول عنها إلى العامية).

وتتناول الثانية الكتابة ، فيدعو بعضها إلى إصلاح قواعدها ويدعو البعض الآخر للتحول عنها إلى اللاتينية ، وتتناول الشعبة الثالثة الأدب ، فيدعو بعضها إلى العناية بالآداب الحديثة وما يتصل منها بالقومية خاصة ، ويدعو بعضها الآخر إلى العناية بما يسمونه " الأدب الشعبي" ويقصدون به كل ما هو متداول بغير اللغة العربية الفصيحة ، مما يختلف في البلد الواحد باختلاف القرى وبتعدد البيئات ، وقد تعرضت " المقتطف سنة ١٨٨١م إلى هذه الدعوات وإثارتها كما أثاره الكثير من الكتاب) [١]

نظرة نقدية

١- اللغة العربية

لو حاولنا أن نضع رسما بيانيا ، يلمس قضايا المقدمات المدروسة لوجدنا ، أن أولها وأعلاها سهما ، العربية فاللغة العربية ، كمفردات وتراكيب ، وبيان ومعان ، وقواعد وتصريف واشتقاق احتلت المكانة الأولى في اهتمام ووعي المفسرين قدامى ومحدثين ولا نسأل عن السبب إذا ما رسخ في وعينا ويقيننا أن القرآن نزل بلسان عربي مبين " من لدن الحكيم الخبير" .

فقد كانت اللغة العربية قاسما مشتركا لدى المفسرين في هذه المقدمات وأن أختلف وضعها الاعتباري في التصنيف بين موضوعات المقدمات ، فالعربية علما وبيانا تحتل مركز الصدارة عند الزمخشري الذي اختزل علم التفسير أهمية وشروطا في المعاني والبيان كما أنها تعتبر هدفا أول لدى صاحب المنار يعول عليها كثيرا وعلى الاهتمام بها وصيانتها لنفض غبار الضعف والركود والتخلف عن الأمة العربية والإسلامية باعتبار لغة القرآن مصدر القوة والسياج الحافظ .

وقد تتراجع إلى المرتبة الثانية في الاهتمام كما هو الحال عند أبن عطية .

وقد تتراجع إلى المرتبة العاشرة كما نجد عن أبن جزي إذ يضعها في الباب العاشر بين أحد عشر بابا في مقدمته الأولى .

---

[١] - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر – محمد محمد حسين _ مؤسسة الرسالة بيروت – الطبعة السادسة : ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م ص٣٦٨-٣٦٩.

كما أن الشوكاني يضع العربية في مقابل الرأي المذموم إذ يرى أن الاقتصار من قبل الصحابي أو التابعي على وجه من وجوه العربية في تفسير القرآن لا يستلزم إهمال سائر المعاني التي تفيدها العربية وهذا يعد تفسيرا باللغة لا بالرأي المنهي عنه لأن القرآن . حمال وجوه .

وقد اهتم الألوسي باللغة اهتماما واضحا ، بل استطعنا أن نقرأ هذا في أكثر من قضية في المقدمات التي ناقش فيها هذا المحور ،واستند إليها وهو يرد على من خالفه .

وعليه فاللغة بهذا المفهوم وباعتبارها أداة هامة في تفسير كلام المولى عز وجل ترتفع لتصطف في مصاف كلام الرسول ﷺ وصحابته في مرتبه واحدة ، لا تنزل عنها وإلا فقد المفسر أداة مهمة لا يستطيع السير دونها قيد أنمله في تفسير كلمة من كتاب الله .

فهذا صاحب فتح البيان يقول أن التفسير الذي ينبغي الاعتداد به والرجوع إليه هو تفسير كتاب الله جل جلاله باللغة العربية ، حقيقة ومجازا إن لم تثبت في ذلك حقيقة شرعية .

٢- الإعجاز القرآني :

تشغل قضية الإعجاز الموضوع الثاني من المقدمات الأولى في تفسير الطبري ويرى أن ليس أبلغ من أن يكون القرآن في بيانه معجزا ومفحما لأساليب البلاغة وصناع الفصاحة والخطب وقول الشعر حيث أقروا بعجزهم وأذعنوا له . فظهر إعجازه الذي هو بالتالي معجزه النبي ﷺ الذي نزل عليه ففهمه وأفهمه لقومه .

والإعجاز القرآني لدى الطبري دليل واضح على صدق نبوة محمد ﷺ-[١]

أما ابن عطية فهو يرى أن مكمن الإعجاز إنما هو في رصف القرآن ونظمه وفصاحته وأن التحدي إنما هو وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة لفظه .

ونحن نلاحظ أن الإعجاز موضوع تقليدي ، بمعنى أنه بما له من علاقة بكلام المولى عز وجل ، فهو جدير بأن يسجل ضمن المقدمات التفسيرية وحسب ، أو بتعبير آخر هو من المسلمات العلمية ، التي لا تحتاج إلى كبير نظر ، في كثير من الأحيان ، بل أنه في أحيان أخرى

---

[١] -الطبري - ١/ ٤ -٦ المقدمة .

يغفل ولا يذكر مجرد ذكر ضمن قضايا المقدمات وربما شذ في هذا الموقف القرطبي الذي حصر وجوه الإعجاز القرآني في عشرة وجوه ، أهمها لديه النظم البديع المخالف لمعهود لسان العرب ، والأخبار بالغيب وأخبار الماضي .

غير أن القرطبي يتوقف ليناقش من أختلف معهم في موضوع الإعجاز وهم القائلون بالصرفة وليرد عليهم بعبارة موجزة : " هذا فاسد لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز " ثم يستشهد بما قاله ابن عطية في هذا الصدد من أن " مكمن الإعجاز في القرآن يكمن في نظمه" .

وهي نقطة توقف لديها الكثير من المفسرين وقالوا بها من أمثال برهان الدين البقاعي " في نظم الدرر " فهو أيضا يرى أن (الإعجاز يكمن في النظم، سواء أكانت جملة مفردة أو تنتظم مع أختها بالنظر إلى الترتيب) ([1]) .

والذي يمكن أن نخرج به من هذا الموضوع أن الإعجاز في القرآن لم يأخذ الحظ الوافي من الاهتمام أو تجليه الكثير من منعطفاته ، ونكاد نلاحظ شبه إجماع على أن النظم والفصاحة هي رأس الإعجاز ، وهذا ما نقرأه في مقدمة ابن جزي الأولى في الباب الحادي عشر ، وهو لا يخرج أيضا عن معتاد ما ألفناه عند المفسرين في مقدماتهم ، أي أنه لم يحظ بمناقشة أو حتى محاولة لربطه بما جاء في تفسيراتهم ضمن معاني الآيات .

غيران الزمخشري كان يعد الإعجاز هدفا من الأهداف التي يسعى لبيانها من خلال التفسير أو الوصول إليها ووسيلته في ذلك البديع والبيان وأن لم يكتب مقدمة ، كمقدمات المفسرين إنما كان ذلك في خطبة الكتاب .

---

[1] – برهان الدين البقاعي – نظم الدرر ١١/١.مكتبة ابن تيمية – القاهرة –ط– الأولى – ١٩٦٩م

٢– الثعالبي هو:عبد الرحمن بن محمد الجزائري الثعالبي مفسر من أعيان الجزائر (٧٨٦– ٨٧٥هـ) له عدة مؤلفات منها : الجواهر الحسان في تفسير القرآن.انظر الأعلام –خير الدين الزركلي – ٣٣١/٣ دار العلم للملايين– بيروت – ط ،الخامسة – ١٩٨٠.

٣– فضل تفسير القرآن وأهميته :

هذا المبحث لا يكاد تخلو منه مقدمة من مقدمات المفسرين وهو موضوع تكرر لدى كل من أبن عطية وأبن كثير وعدد غير قليل من المفسرين ، يعتمد ابن عطية في الموضوع على إيراد الكثير من الأحاديث الواردة في فضل القرآن الكريم وضرب الأمثلة في امتداح الصحابة .

والثعالبي في " الجواهر الحسان " يبدأ به مقدماته داعيا إلى أهمية التفكر في فهم ([2]) وهو مسلك أخذه القنوجي صاحب " فتح البيان "على بعض مفسري السلف والذي خص منهم بالذكر الزمخشري والثعالبي في أثناء تفسيرهم للآيات القرآنية بالإكثار من الأحاديث في فضائل القرآن واعتبر ذلك دليلا على عدم معرفة بالسنة .

وأحسب أن هذا دليل صحة وعافية بدت على مقدمات المتأخرين في عدم اعتبار مسلك السلف في تفسيراتهم مسلمات بديهية وإنما يؤخذ منها ويرد عليها .

كتب هذا حين كان يتناول موضوع أهمية التفسير وفضله غير أنه لم يضف إليه جديدا أو مزيدا عما ذكره السابقون .

وصاحب المنار يسمى أهمية التفسير بالحاجة واعتقد أن هذه الحاجة تعني أهمية التفسير التي نادى بها الكثير من مفسري السلف من قبله ، ولعل الحاجة أو الأهمية التي عناها صاحب المنار لها أسبابها ودواعيها التي قد تختلف عمن سبقه وإن اتحد الهدف ،فهذه الحاجة عند رضا هي أمر اقتضته ظروف عصره الذي عاشه من تسلط المستعمر على الدين واللغة باعتبارها حامية لهذا الدين ولغة لكتابه الكريم ، إضافة إلى التعصب الجنسي للعرق واللغة مما شكل خطورة وضرورة قصوى استشعرها المؤلف ، وراح يبين ويوضح أبعاد هذا المشكل من خلال مقدمة التفسير ، بل كانت غاية وضع من أجلها " تفسير المنار " إضافة إلى قضية أخرى مهمة هي الخلاف العربي والاختلاف حول فهم حقيقي لروح النص القرآني وعدم تدبر واع لما جاء فيه ، مقارنة بما كان عليه العرب السابقون من فهم ووعي لآيات القرآن الكريم .

٤– التحرج والمنع :

يناضل الطبري لاثبات جواز التفسير ومشروعيته وأن ما قيل في هذا الشأن من موانع أو تحريم فهو إما سوء تأويل للنصوص أو عدم فهم لما جاء عن النبي _صلى الله عليه وسلم_ في هذا الأمر .

وقد بدا موقفه في هذا الموضوع وكأنه يواجه فريقا من المعترضين والمنكرين ، ومن ثم فإنه يأخذ على عاتقه مهمة تجلية هذا الغموض وبيان اللبس وعدم الفهم عند هذا الفريق.

وفي هذا الباب ساق لنا الطبري عددا من الأحاديث الواردة عن النبيﷺ من مثل قوله في حديث عائشة ما كان النبيﷺ يفسر شيئا من القرآن إلا آيا بعدد علمه إياهن جبريل " وأيضا من أقوال الصحابة ، مثل ما روي عن ابن عباس أنه سئل عن آية من القرآن كما قال الراوي لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى.

أو أقوال التابعين من مثل سعيد بن المسيب ، قال: " سأل رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال " لا تسألني عن آية في القرآن وسل من زعم أنه لا يخفى عليه شيء منه يعني عكرمة " .

كل هذه الآثار وغيرها يضعها الطبري بين يدي قارئ التفسير ليشير إلى أن هناك رأيا واتجاها سائدا له مناصروه يعتمد على مثل هذه المأثورات مما قد يشكل حجر عثره في طريق السائرين والقائلين بجواز التفسير لكتاب الله .

ومن هنا فانه يأخذ على نفسه مهمة تجلية هذا الاتجاه الخاطئ فيما يحسب وحمل على القائلين به بشدة ولدرجة وصفهم بالغباء أحيانا خاصة في تمسكهم بحديث عائشة السابق ، حيث يقرر " أن ذلك من أوهام أهل الغباء " وأن النبي ﷺ قد أدى وبين ما أنزل عليه ، وترك للناس بيان ما أنزل إليهم ، ثم أن الطبري أيضا يشكك في صحة هذا الحديث فيقول: " هذا مع ما في الخبر الذي روى عن عائشة من العلة في إسناده التي لا يجوز معها الاحتجاج به لأحد ممن علم صحيح سند الآثار وفاسدها لأن راويه ممن لا يعرف في أهل الآثار وهو جعفر بن محمد الزبيري ، أما الأخبار (١) التي ذكرناها عمن ذكرناها عنه من التابعين بإحجامه عن التأويل فإن فعل من فعل ذلك ، منهم كفعل من أحجم عن الفتيا في النوازل والحوادث مع إقراره بأن لله في كل نازلة أو حادثه حكما موجودا بنص أو دلالة ، فلم يكن إحجامه في ذلك إحجام جاحد ، ولكن إحجام خائف أن لا يبلغ في اجتهاده ما كلف الله العلماء من عباده فيه ، فكذلك إحجام من أحجم عن القيل في تأويل القرآن وتفسيره من العلماء السلف إنما كان إحجاما عنه حذار أن لا يبلغ أداء ما كلف من

١ – المقدمة الطبري ٣/١

إصابة صواب القول فيه لا على أن تأويل ذلك محجوب عن علماء الأمة غير موجود بين أظهرهم "

ويحتج الطبري لمذهبه هذا بصحة الخبر الوارد عن ابن مسعود " كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعلم معانيهن والعمل بهن " .

ولا أحسب من جاء بعده من مفسرين تناولوا موضوع المنع والتحرج عن القرآن إلا سائرين ومترسمين ذات السبيل الذي ساره من قبل الطبري وما مسلك ابن كثير في ذلك ألا خير شاهد على ما ذهبنا إليه ، إضافة إلى أنه ينقل نص الروايات المذكورة عند الطبري بأسانيدها ، وان بدا لنا أن ابن كثير ، أكثر تقدما في حمل هذه الراويات وفي تأويلها ، إذ يقول فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه ، وهو زبدة ما انتهى إليه الطبري .

ويضيف ابن كثير(فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه .. وهذا هو الواجب على كل أحد فإنه يجب السكوت عما لا علم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى " لتبينه للناس ولا تكتمونه" (*))(١).

خاتمة وتعقيب :

–في ختام هذه الدراسة التي تناولت بعض مقدمات المفسرين ، أرى أن هناك عوامل أدت إلى ظهور هذه المقدمات ، وساعدت على تشكيلها وإبرازها ، أهمها :

١) وجود تيار قوي سلفي ، آثر الابتعاد عن تفسير القرآن الكريم ، وحمل العديد من الروايات سواء الواردة عن النبي ﷺ أو عن صحابته أو حتى عن التابعين على محامل بعيدة ، فندها أكثر المفسرين فيما بعد ، مستشهدين بالعديد من النصوص والآيات القرآنية التي تحض وتحث على تفسير آيات القرآن الكريم ، من مثل قوله تعالى "

(*) الآية : ١٨٧ سورة : آل عمران

(١) تفسير القرآن العظيم — ابن كثير ٦/١ —دار المعرفة بيروت —١٩٦

أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها[١] ، وقوله تعالى " ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم"[٢] و " نزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء"[٣]

١) ندرة ما أثر عن النبيﷺ من تفسير للقرآن الكريم ، وعدم حاجة الصحابة في عصره لمزيد بيان وشرح ، وهم أهل الفصاحة والبيان ، يضاف إلى ذلك أيضا قلة ما أثر عن صحابة النبي ﷺ من بعده من تفسير للقرآن الكريم ، وبروز الحاجة الماسة فيما تلا ذلك من عصور لكثير من مستجدات حدثت في الواقع الإسلامي المعاش .

٢) كثرة النصوص سواء القرآنية أو الأحاديث النبوية الشريفة أو عمل الصحابة ومن تابعهم ، التي أكدت في مضمونها ومفهومها جواز تفسير آيات القرآن الكريم ، مع انعدام النصوص أو ندرة النصوص التي تحظر التصدي للتفسير إلا إذا حملت على محامل بعيدة كما سبق وأشرنا .

٣) اختلاط العرب المسلمين بالكثير من الأجناس العرقية المختلفة ودخول هؤلاء إلى الإسلام بسبب الفتوح الإسلامية في العصور الراشدة وحتى يومنا هذا وظهور حاجة هؤلاء الملحة لفهم نصوص القرآن ، مما دعى الكثير من العلماء للقيام بمهمة الدعوة والتبليغ والتفسير ، هذا إضافة إلى حدوث الكثير من المشكلات التي واجهت العربية كلغة للقرآن وما وجه إلى الدين الإسلامي من حملات وانتقادات باطلة ، مما دعا غالبية هؤلاء العلماء الغيورين لوضع مصنفات توضح وتزيل اللبس والغموض ، وتنفي الزيف : لهذه الأسباب مجتمعه ومتفرقة وربما لأسباب أخرى قد فاتني أن أذكرها ، وضعت مقدمات التفسير التي شكلت في بداياتها الأولى لدى المفسرين القدامى خاصة ، جزءا من النظام الفكري السائد في تلك الحقبة الزمنية .

وبناء عليه وبعد هذه القراءة في مقدمات التفسير والمفسرين ، نتوقف برهة لرصد الموقف العام لها والذي يتجلى لنا من خلال محاور عدة .

---

[١] – الآية : ٢٤ : سورة محمد .
[٢] – الآية : ٨٣ : سورة النساء .
[٣] – الآية : ٨٩ : سورة النحل .

أولا :

هذا الموضوع جدير بأن تفرد له دراسة مطولة ،أو كتاب يتناول فيه التفسير من أوله إلى آخره مثل الطبري ومن جاء بعده .

ثانيا :

أن معظم الأهداف التي حررت من أجلها كتب التفسير هي خدمة كتاب الله عز وجل أو ابتغاء مرضاته ، أو لأن هذا العلم هو أشرف العلوم قاطبة ، وترتب على هذا أن وجدنا .إن غالبيه مقدمات التفسير جاءت وكأنها شهادات حسن سير وسلوك أو جوازات مرور تثبت أن المتصدي لتفسير هذا الكتاب على درجة عالية من العلم والمعرفة فيما يختص بكتاب الله العظيم.

ثالثا:

أبرز ما يؤخذ على المفسرين في العصور المتقدمة هو عدم التوظيف الجيد لقضايا وهموم المقدمات ، وهذا ما يؤكد أيضا أن هذه المقدمات لم تكن شكليات صماء على الرغم من عدم اقترابها في كثير أو جل الأحيان من المعاني والأهداف التفسيرية ، وإنما كانت تحمل شجونا وهموما وآمالا وآلاما إلا أنها بقيت بعيدة عن ملامسة روح النص القرآني ، وعاجزة في كثير من الأحيان عن التدليل على مدى أهميتها للتفسير .

رابعا:

بالرغم من العجز الواضح في أحيان كثيرة لهذه المقدمات فليس معنى ذلك التقليل من شأنها أو المطالبة باستبعادها ، لأن هذه المقدمات استطاعت في أحيان كثيرة أن تلقي بأضواء كاشفة على أهم أدواء تلك العصور الفكرية والعلمية وأن تكشف لنا جانبا من معاناة العلماء واختلافاتهم .

خامسا:

أهم ما طرحته هذه المقدمات في رأيي هو أنها قعدت وأسست لعلم جديد هو علم أصول التفسير ، وعلوم القرآن ، وهو بحق إضافة كسبها علم التفسير كعلم جديد ناشئ تفرد له مؤلفات خاصة بعد أن كان فصلا من فصول كتب الحديث ، مما بعد تأصيلا وتنبيها إلى أهمية هذا العلم وخطورته .

سادسا:

حتى وإن كان القاسم المشترك الذي يربط بين موضوعات المقدمات ممثلا في تكرار موضوعات عديدة دون إضافة أو تجديد إلا أن ظاهرة التكرار هذه قد توقفت أو تلاشت تقريبا في مرحلة الجمود والتوقف حيث استطاع بعض المتأخرين من مفسري القرون اللاحقة ، كأبناء القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجريين من أمثال الشوكاني مثلا أن يلتقط هذا الخيط ويحرك هذا الجمود ،وكما ظهر لنا من مقدمته التي كانت أشبه بتعامل جديد مميز .

والشوكاني بالرغم من أنه لم يضع مقدمة لتفسيره إلا أن خطبة كتابه تعد خطوة تطويرية أن صح هذا التعبير ، وذلك من حيث الاستغناء عن المقدمات المطولة التي دأب عليها السابقون ، ثم التركيز على نقاط معينة أحسن المفسر توظيفها حيث كشفت عن منهج الرجل حيال التعامل مع التفسير ، كما أنه استطاع أن يبين لنا مدى أهمية هذه المقدمات من خلال توضيح العلاقة الإرتباطية بين المقدمة والمعاني والأهداف التي ترمى إليها الآيات القرآنية في التفسير .

وربما بدا هذا الخط أكثر وضوحا إذا أخذنا منهج العلماء في القرن الثالث عشر ، متمثلا في كل من الألوسي في " روح المعاني " والقنوجي في " فتح البيان " أو لدى مدرسة " المنار " وبحيث يمكن القول بأن أثر التطور في الفكر العلمي والمنهجي لدى المفسرين قد بدأ يتبلور .

فمقدمات المعاصرين على الرغم من أنها لم تختلف كثيرا عن مقدمات السابقين من حيث الموضوع إلا أنها أضافت ألوانا أخرى وموضوعات هي صورة من معطيات العصر والبيئة الاجتماعية والثقافية ، وقد لمسنا ذلك لدى الشيخ رضا ولدى الشيخ القنوجي ، ولدى الألوسي .

مما يجدر التوقف عنده أيضا من تلمس لأثر هذا التطور، طريقة التعاطي والتعامل مع موضوعات المقدمات من خلال التوظيف وحسن الاستفادة من مواقف السابقين ، بل والاستدراك عليهم أحيانا ، وقد كان لكل ذلك أثر كبير – بلا ريب – في الارتقاء بالمفهوم العام للمقدمات وتطورها من مجرد موضوعات شكلية لا تقدم ولا تؤخر ، إلى هذا التحول الجوهري في حسن التوظيف أو ربط قضايا المقدمات بأهداف التفسير والمفسر .

يضاف إلى ذلك أن المقدمات المتأخرة بدأت تمس الحياة الاجتماعية وتفاعلاتها الفكرية والحياتية والدينية وتناقشها ، وتوضح لبسها وخفاياها ، ثم تربط هذه الموضوعات بالمقدمات .

كما وجدنا أيضا أن المقدمات لدى المعاصرين ترسم خطوطا منهجية تدل على الوجهة والتوجه في السير في التفسير ، وهو ما شق علينا التماسه عند القدماء .

وأخيرا ربما جاز لنا أن نأخذ على هذه المقدمات بشكل عام عدم ظهور التوجه العقدي والمذهبي في غالب الأحيان ، باستثناء الألوسي في روح المعاني .

تم بحمد الله ،،

قائمة المراجع :

١- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر - محمد محمد حسين - مؤسسة الرسالة-بيروت- الطبعة السادسة - ١٩٨٣ م .

٢- الأعلام - خير الدين الزركلي - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الخامسة ١٩٨٠م

٣- التفسير والمفسرون -محمد حسين الذهبي - دار الكتب الحديثة القاهرة -١٩٧٦م .

٤- التفسير ورجاله - محمد الفاضل ابن عاشور - دار الكتب الشرقية - تونس- ١٩٧٢م

٥- الجامع لأحكام القرآن - أبي عبد الله القرطبي - دار الغد العربي - القاهرة - الطبعة الأولى - ١٩٨٨م .

٦- الجواهر الحسان - عبد الرحمن الجزائري الثعالبي -

٧- الطبري ومنهجه في التفسير - د. محمود بن الشريف - شركة عكاظ - جدة -الطبعة الأولى - ١٩٨٤م .

٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - أبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي -

٩- تحقيق : الرحالي الفار وقي وعبد الله بن إبراهيم الأنصاري وآخرون - دولة قطر -الطبعة الأولى - ١٩٧٧م ..

١٠- القرطبي ومنهجه في التفسير - القصبي محمود زلط - دار القلم - الكويت - ١٩٨١م.

١١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي -دار إحياء التراث العربي - بيروت -

١٢- المعجم الوسيط -طبع مجمع اللغة العربية - الطبعة الثانية - ١٩٧٣م .

١٣- ابن عطية ومنهجه في التفسير - فايد عبد الوهاب فايد - رسالة دكتوراه - جامعة الأزهر - كلية أصول الدين - ١٩٧٣م .

١٤- تفسير القرآن العظيم - لابن كثير - دار المعرفة -بيروت - ١٩٦٩م .

١٥- تفسير المنار - محمد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت .

١٦- جامع البيان في تفسير القرآن - ابن جرير الطبري - دار الفكر - بيروت - ١٩٧٨م .

١٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - الألوسي البغدادي -دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون .

١٨- فتح البيان في مقاصد القرآن - أبو الطيب القنوجي -دار إحياء التراث الإسلامي - دولة قطر ١٩٨٩م .

١٩- لسان العرب - لابن منظور - دار إحياء التراث العربي - بيروت- الطبعة الأولى -١٩٨٨م .

٢٠- موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف -إعداد : أبو هاجر محمد السعيد زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - بدون .

٢١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - برهان الدين البقاعي - مكتبة ابن تيميه - القاهرة -الطبعة الأولى -١٩٦٩م .

٢٢- وفيات الأعيان -لابن خلكان - تحقيق : إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٩٧٩م .